درس بعنوان: تفسير سورة الكافرون

لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن أحمد البداح

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذا درس في شرح سورة الكافرون ضمن دروس شرح قصار السور.

هذه السورة لها أسماء فمن أسمائها المقشقشة أي المبرئة من النفاق ومن أسمائها سورة العبادة وسورة المنابذة وسورة الإخلاص وسورة الكافرون، أما فضلها فقد جاء عند أحمد والترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ ((أنها تعدل ربع القرآن)) وهذا الحديث في إسناده ضعف وروي عن أنس موقوفًا عليه، أما سبب نزول هذه السورة فقد ذكر أن الوليد بن مغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف لقوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي جئت خيرًا مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾.

تفسير هذه السورة قُلْ الخطاب للنبي ﷺ وكرر الله عز وجل في هذه السورة نفي عبادة النبي ﷺ لآلهتهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾ فلم كرر الله عز وجل ذلك؟ قيل إن هذا للتوكيد في قطع أطماعهم أن يعبد النبي ﷺ ما يعبدونه وهذا التكرار معروف في كلام العرب وأنه يأتي للتوكيد وهو أيضًا مما جاء في القرآن كقوله سبحانه ﴿لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٦-٧] وكما في قوله عز وجل ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] وكأن هذا هو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقيل إن الله عز وجل كرر ذلك بمعنى التغليظ وقيل إن المراد بقوله لا أَعْبُدُ أي الساعة وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ أي الساعة وَلا أَنَا عَابِدٌ يعني في المستقبل وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ يعني في المستقبل، واختار ابن تيمية رحمه الله أن قوله عز وجل ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، وقوله سبحانه ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾ نفي قبوله بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية أوكد كأنه نفى الفعل ونفى وقوعه.

قوله عز وجل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فيه معنى التهديد وهو كمعنى قوله عز وجل ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى:١٥] أي إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا، وقيل المعنى لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني.

هذه السورة الكريمة تشتمل على لطائف، فمن لطائفها: **اللطيفة الأولى** تقرر هذه السورة التوحيد وتنفي الشرك، جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (هذه السورة براءة من الشرك) وجاء عن النبي ﷺ كما روى أحمد وأبو داوود والترمذي أنه قال لرجل: ((إذا أويت إلى مضجعك أو فراشك فاقرأ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فإنَّها براءةٌ منَ الشِّركِ)).

اللطيفة الثانية خطاب النبي ﷺ للكفار في مكة حيث نزلت هذه السورة وهم في ناديهم وبسطة أيديهم إشارة إلى وجوب الإعلان بالتوحيد ولزوم إظهار التجريد وإن كان في زمن ضعف المسلمين وقوة المشركين؛ لأن التوحيد هو الأصل والأساس والقاعدة.

اللطيفة الثالثة الدين لا يقبل المداهنة ولا يجيز المساومة فهو حق لا مرية فيه وصدق لا كذب فيه، وأمنية الكفار ومطلبهم وغايتهم ومقصدهم مداهنة المسلمين لهم بإظهار الرضى بدينهم كما قال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩].

اللطيفة الرابعة يجب بقاء الحق نقيًا من غير خلط ولا تلبيس ولا تلفيق ولا تدليس كما قال تعالى ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤٢] قال مجاهد بن جبر لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام.

اللطيفة الخامسة تقطع هذه السورة صور التلون والتقلب، قال أبو مسعود الأنصاري لحذيفة رضي الله عنه أوصني فقال له: (إن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر وتنكر ما كنت تعرف وإياك والتلون في دين الله فإن دين الله واحد) وقال أيضًا رضي الله عنه وأرضاه: (من أحب أن يعلم أصابته الفتنة أم لا فلينظر إن كان يرى حرامًا ما كان يراه حلالًا أو يرى حلالًا ما كان يراه حرامًا فقد أصابته الفتنة).

اللطيفة السادسة أشارت السورة إلى الثبات على الحق ولزوم الصراط المستقيم فالحذر من الانتكاس والوقوع في الردة والارتكاس، فإن الشأن أن يثبت المؤمن حتى يلقى رب الناس على التوحيد والإخلاص.

اللطيفة السابعة لا يتم التوحيد إلا بإعلان البراءة وإظهار المنابذة لدين المعاندين وعقيدة المخالفين، وهذا هو الركن الأول من لا إله إلا الله بنفي العبادة عما سوى الله.

اللطيفة الثامنة الإسلام دين واضح لا يشتبه بغيره وهو حق لا يشبه غيره، فمن اشتبه عليه الأمر فقد ضل ومن خلط فقد زل، قال حذيفة رضي الله عنه: (إذا اشتبه عليك الحق بالباطل فلم تدر أيهما تتبع فتلك الفتنة).

اللطيفة التاسعة دل ظاهر الآية قوله ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أن المخاطبين بذلك لا يعبدون الله تعالى أبدًا، مع أن آيات من القرآن دلت على أن منهم من يؤمن كما قال تعالى ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ [العنكبوت:٤٧]والجواب عن ذلك أن المخاطبين بذلك من نزلت فيهم الآيات ممن ماتوا على الكفر، الوجه الثاني أن الخطاب لجنس الكفار وإن أسلموا بعد ذلك لم يتناولهم هذا الخطاب، الوجه الثالث أن الآية من العام المخصوص فهي في الأشقياء الذين أشار إليهم الله عز وجل بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٩٦].

اللطيفة العاشرة أن الإسلام عقيدة تفرق بين المؤمن والكافر والمنقاد والمعاند، وهذه عقيدة الأنبياء والمرسلين كما قال تعالى عن صالح عليه السلام أنه قال لقومه ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩] وكما قال شعيب لقومه ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

اللطيفة الحادية عشرة الإسلام عقيدة تقوم على معان حقيقية من الانقياد للحق والولاء له والبراءة من غيره، فهو ليس انتسابًا مجردًا لا معنى له ولا حقيقة يقتصر صاحبه على أعمال ظاهرة يفعلها للتبرك أحيانًا أو للإلف والتعود أحيانًا أخرى.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.